القضية الكبرى لشعبنا

إبّان تزحزح العالم كله نحو الربيع في هذه الأيام، يتفق الجميع على أن المستقبل سيكون خيراً على الرغم من معوقاتٍ بسبب الوضع التاريخي. وجدير بنا أن نطلع على حال الذين يضغطون على هذا "التكوين" العالمي بعزم وإرادة وقدرة عالية. ولا شك في أن من واجب كل مثقف أن يفكر ملياً في مستقبل وطننا وشعبنا. لكن الشك فيما إن كان الجميع يحسون بمسؤوليتهم هذه أم لا. الثابت عندي هو أن نفراً قليلاً في هذا الوطن يقومون ويقعدون منذ سنوات مديدة حالمين بالمستقبل ومضطربين، على أملٍ بأن الطرق الوعرة ستوصل إلى الممهدة في يوم آت.

هذا الوطن، وهذه الأرض، التي رويت منذ زمان بدماء ملايين النفوس المضحية، تعيش اليوم مع كثير من أبنائها الأوفياء حماس العبور من الماضي إلى الآتي... طافحين بالرجاء والأمل وممسوسين بقشعريرة حمّى الارتقاء بشعبهم. فترى إحدى يديهم ورجليهم منشغلة بالعمل اليومي، وأخراها منشغلة في تجهيز الخطط والبرامج للمستقبل، بل تجدهم قد وهبوا أحاسيسهم ومشاعرهم لإمرة فكرهم ودعواهم. ولا بأس أن نقول بأن التاريخ التليد المجيد، والشعب المحظوظ الذكي، الذي حمي وحفظ قضيته الكبرى منذ ألف عام، فطوّرها وصوّرها حُسناً وشكلا، يحس بالتهاب جذوتها في الأرواح كرة أخرى بوازع الحنين المزمن الحاد. فإن كثرة من الجيل الجديد يبدون وكأنهم رموز هذه القضية، وممثلو هذه الرسالة، بفيض مشاعر الوحدة والتضامن، والعزم على الرقي بشعبهم فوق شعوب العصر. وكأنّ مآل المستقبل إلى أن يكون سرادقاً أبدياً لهؤلاء، ما لم تهب عاصفة مضادة لا تبقي ولا تذر.

هذه القضية بسطت أجنحتها الوارفة على يد أعاظم الإسلام الأوائل،

فكان الأمويون والعباسيون، ثم اكتسبت قيمة ومرتبة مختلفة مع السلاجقة، وصارت أخيراً مع العثمانيين مسألة عظيمة وسامقة، ثم أصيبت بنكبة مريرة في مرحلة معلومة. لكن اليوم نشهد سياق عودة الحياة من جديد إلى القرية والمدينة، والعائلة والدولة، والشارع والمدرسة، والفن والعلم، والعمل والأخلاق، ونرى رفرفة خمائل القضية في كل صوب وناحية منذ الآن بوفاء كوفاء الفجر، وعلى مرغمة كل عائق، وبفضل الذين حفّزوا الخارطة الروحية للوطن بخفقات قلوبهم، ولوّنوها وسقوها بدموعهم. ولئن جاز العديد من خداع الفجر الكاذب، فإن شهادة أصدق الشهود على شروق الشمس قريباً هو الفجر الصادق في الأفق نفسه.

وعلى الضد من الحرص على المادة، وحب المقام والمنصب، والرغب إلى حياة، والضعف أمام الشهرة، والخشية من فوات الدنيا، وما يشبه من العوامل التي حلت محل قضيتنا الروحية والفكرية، وعلى النقيض من تقديس كل متروك ومنبوذ، نحس اليوم بداية زحزحتها عن مكانها وإشغاله بكل ما محوره الروح والمعنى. فنرى ظهوراً واضحاً لورثة قيم الماضي كلها من الممثلين السامقين للعلم والفن والأخلاق والفضيلة، أو المرشحين لمثل هذا التمثيل، فنجدهم حضوراً محل صخابي الأمس بدعاوى إنقاذ الوطن والصعود بالبلاد إلى مستوى الغرب، ومرائي الانهماك في العمل بأفكارهم الغرة وتخيلاتهم الحالمة ولا شيء إلا الجعجعة.

وما زالت المعارك دائرة في ميادين للسياسة، وساحات للمصالح، وممرات للمنافع... وما زال قوم يمنحون نصيباً للأطماع والرغبات ويوقعون الشعب في حيص بيص بادعاء إنقاذ الوطن وتثقيف الشعب والارتقاء بالوطن... والهذر بشعارات زائفة أخرى من أمثالها. لكن أرجوكم أن تدلوني على زمن لم يكن فيه من يشبه هؤلاء! فهم موجودون في كل زمان. وسنجدهم غداً كما نجدهم اليوم! فالتاريخ هو تاريخ الذين يتشاتمون ويفترسون وينصبون

الفخاخ ويخونون ويفترون الكذب، كما هو تاريخ الصالحين والطيبين. وهل من حاجة إلى الإسهاب، إذ يكفينا أن نطلع على ماضينا القريب لنمتلئ رعبا؟ فكم من روح اغتيلت بشعار الديمقراطية! وكم من شرائح اجتماعية أوقع بينها فصارت بعضها ذئاب بعض! وكم من مرة سقيت قلوبنا بالحقد والبغض والكدر!

فلا نأمل أن تختلف أعمال شرائح من المجتمع بنوعها وطبيعتها اليوم أو غداً عن أمسها. ولن يخلو أنـــزه مجتمع وأمثله طريقةً من أرواح مظلمة، خادعة تفرق، ومستغلة تسحق، ومُبَدلة لأقنعتها المضللة تنجح في ستر أنفسها... وكما كانت في الماضي. لكن الواقع يبشر اليوم بوجود بَشَرٍ وافر وجهدٍ زاخر يفوح طيبا ملء الدنيا.

واليوم، هـــذا النفير التربوي بأسمائه وعناوينه المتنوعة، وهذا الجهد المنصرف إلى الحب والتسامح والحوار، هِمّة مهمة في سبيل لملمة شعث المجتمع وتحريك مصادر قوته المعنوية... همة تفي بإنقاذ سفينة الشعب الجانحة بالساحل، على أيدي أجيال مؤمنة مشدودة الأوتار بالميتافيزيقي الغيبي. إن تلك العوائل التي فقدت فلذات أكبادها فوق مساحة واسعة في زمن مضى، ممتدة من اليمن إلى البلقان، ومن صحارى العرب إلى سهوب آسيا، استدركت ما فقدت بفضل كفاح الاستقلال والاستقرار، فَشَبّت آمالُها بالقرار على بناء دُنيا جديدة. لكن أجيال اليوم التي تهرأت روحاً وشخصية وانتُقِص الشيء الكثير من مجموع قيمها الإنسانية أخلاقاً وفضيلة وفكراً وفنا بصورة متشابكة، ستشهد "الانبعاث بعد الموت" في ظل الاستقلال الروحي والاستقرار الفكري.

كان القرن التاسع عشر والعشرين عصر تفككنا وتراجعنا. ولم نتحسس زمناً طويلاً الأسباب الحقيقية لهذا التفكك والتراجع، أو قل إن شئت: حُرّفت الأفكار بهذا الشأن قصداً وعمداً... ولذلك شهدنا مظاهر هائلة من

الرجعية في الدين والعلم والفن والإبداع، حتى إن بعض التيارات المتنافسة في الإطار الفكري، قد تحولت إلى تيار للإلحاد والإنكار تحت تأثير أحلامها الموهومة وحيرتها وشدهها. بل ظهرت "موضة" التشدق بالعلم والسفسطة بدلاً عن الدهاء العلمي، والتمويه والتضليل بدلاً عن الثقافة، والتشويه والتلطيخ بدلاً عن الكفاح. وناضل قوم يحسبون الحيلة مهارة نضالا لا هوادة فيه من أجل هدم الحقائق التاريخية بالافتراء والتزوير والكذب.

ثم انظروا ما أروع جلوة القدر، إذ إن تلك المحركات التاريخية وجذور الشعب المعنوية لا زالت قائمة على قدميها ومتانتها، والذين سقطوا وولوا الأدبار هم أولئك!

فإن هذا الشعب الذي يستيقظ مرة أخرى على استقامة خط النبي ﷺ، يترنم بأنشودة الصيرورة والتواجد الجديد مع أنسام الربيع الغض، كالزنابق إذا انبثقت من الأرض رقعة فرقعة، وإذا استولت على الأرجاء ناحية فناحية. نحن اليوم نرى أنفسنا –وإن كان إلى حدٍ معين– أمضى عزماً وأرصن قراراً، إذ نستمد من الرجاء والانشراح الحاصل بالعودة إلى الذات والعثور عليها. ورجائي أن يكون كل جهد وهمة، وكل قطرة دمع، بعد الآن كما كان من قبل، شفاءً لجروحنا التي بدت مستعصية على الدواء، وضياءً للمستقبل الذي بدا مظلما في عيون البعض منا.

وإذ ندخل إلى عتبات القرن الحادي والعشرين، فإن مستقبل بلادنا والبلاد المرتبطة بشؤوننا منوط بعُقبان جيش النور ذات أجنحة الضياء الذين يُعَدّون ممثلين سامقين للعلم والفضيلة والأخلاق في أيامنا، والذين نذر أكثرهم نفسه للتربية والتعليم. وستكون هذه الأجيال المباركة الرائدة –إن شاء الله تعالى– أصواتاً من النور وأفكاراً من الضياء تصفي حساب شعبنا مع العصر، زيادة على ريادتها في اكتساب قيمنا التاريخية مجدداً.

إن قضيتنا وغايتنا في الصيرورة والتواجد لا تماس لها ولا تلامس مع القوة

العمياء مطلقاً. فنحن بملاحظتنا لحكمة وجود القوة المستسلمة للحق، لنا مفهوم لإحقاق الحق يتفق مع فكرنا الذاتي الرحب، ومتلقياتنا الفنية الأَنفس من النفيس، وتدقيقنا الأدق الذي يشطر الشعرة أربعين شطرا. هذا إلى جانب احترامنا لضرورة التكنيك والتكنولوجيا، وألزمية الصناعة وعاجليتها، وعلو قيمة العلم فوق القيم، وإيماننا بالأهمية المطلقة لتغذية وطننا بكل ذلك، وبضرورة تحفيزه وإعانته في هذه المهمة الصعبة. ولذلك نحن اليوم في أمس الحاجة إلى مرشدين ذوي أدمغة متأهلة وأفكار رحيبة وآفاق واسعة، يقيمون هذه الموازنات لإنساننا، ويرتقون بشعبنا إلى ذرى الفكر، ويقودوننا إلى جذور معنوياتنا الذاتية، ويطلقون أرواحنا المشتاقة إلى المعالي نحو اللانهاية.

إن هذا الوطن بحاجة إلى أبطال شجعان من حواريي العلم والأخلاق والفضيلة المحصنين بالإيمان والأمل، الطافحين بالعشق والحماس، المنسلخين من الأغراض المادية والمعنوية والدنيوية والأخروية، أكثر من حاجته إلى الأحزاب والتعصب الحزبي. وإلى حين التقائنا بهم واستسلامنا لهم، أظن أن غربتنا وأسرنا المتمازجين سيستمران، وإن كان بشكل نسبي. أدعو الرحمن الذي لا نهاية لرحمته أن يغيثنا بأولئك الخالدين الناهلين من منابع "الخِضْر"، الحاملين كؤوس الحياة لنا في أيديهم، والذين وجدنا السلوان بأَماراتهم وعلاماتهم البادية في الآفاق، ونحن نترقبها منذ سنين.

الأجيال المثالية

في هذه الأيام المطلة على أيام الحبور، إذ يستنشق فجرها أنفاس العيد، نجد في الواقع نوبات مرض ومعضلات تبدو مستعصية على الحل. وإن العلل الاجتماعية، والأمراض "الملّيّة" والآفات الطبيعية، وما يشبه هذه الأزمات التي تستشري في جسد المجتمعات، لا تعالج بتدابير يومية قصيرة الباع. فإن معالجة أزمات واسعة الآثار كهذه، منوط بشيوع البصيرة والعلم والحكمة في المجتمع. وعلى نقيض ذلك: الاشتغال بمعالجتها بسياسات المناورة اليومية التي لا غاية لها ولا أفق فيها، ليس إلا هدراً للزمن. ونعلم من أمسنا ويومنا أن رجال الروح والمعنى والبصيرة قد حلّوا عُقَد أعصى المعضلات والأزمات بيسرٍ لا يستوعبه خيالنا، وذلك بسعة آفاقهم وعلو هممهم، وبتحريك قسم من مصادر قوة اليوم لحساب المستقبل. وكثيراً ما حسبنا تدابيرهم الفذة فوق قدرة البشر وأصابنا الدهش والشَدَه منها. والواقع أن ما قاموا به هو ما يقوم به كل موفق من الرجال... ألا وهو استنفاد كل الطاقات والقدرات التي وهبها لهم الحق تعالى وبأحسن وجه مفيد.

نعم، أولئك ينشغلون بحساب الغد مع اليوم قياماً وقعوداً، ويستعملون الإمكانات والحركيات الحاضرة أحجاراً لإنشاء الجسور الموصلة إلى الغد، ويجدون في حناجرهم غصص نَقْل الأيـــام الحاضرة إلى الأيـــام القابلة... يبتلعون حسابات هذا النقل غصة بعد غصة، لأن حل عقدة المعضلة مرتبط بتجاوز الزمن الحاضر، بل بالتحرر من قيود الزمان... إلى درجة النظر إلى الماضي والحاضر والقابل، والقدرة على تحليله وتقويمه، بالصفاء والنقاء نفسه. هذا الفكر الرحيب الذي يعني احتضان الغد منذ الآن، وفهم محتوى المستقبل روحاً ومعنى، سَمّه إن شئت "مثالية". لكن لا يُتصور أن يتغلب من لا تتسع

آفاقه هذا الاتساع على معضلات ومشاكل كهذه، ولا أن يَعِدنا بشيء ذي بال باسم المستقبل. إن الفخامة والعظمة والحياة الصاخبة لفرعون ونمرود ونابليون وقيصر وأمثالهم، لم تقدم شيئاً باسم المستقبل -مهما كبرت أعمالهم في عيون قوم يحسنون الظن بلا تمحيص- بل محال ذلك، لأنهم وضعوا الحق تحت إمرة القوة، وشدوا الروابط الاجتماعية حول المنافع، وقضوا أعمارهم عبيداً للنفسانية عبودية لا ترتضي عتقا.

والحال أن الذين جعلوا الأناضول وطناً، وابتداءً من الخلفاء الراشدين، خلفوا آثاراً تجتاز باعتبار نتائجها الدُّنَى لتصل إلى العقبى وتتحدى العصور، في نظر الذين لا ينخدعون بالخسوف والكسوف المؤقت. نعم، عاش هؤلاء عمراً زاخراً ثم رحلوا، ولكن لن يغادروا الصدور التي يحيون فيها بذكرى مآثرهم الجميلة. وما زالت أرجاء بلادنا تعبق بروح ومعاني آلب أرسلان وملك شاه والغازي عثمان والفاتح، وتسيل الآمال والبشرى من غايات خيالهم وأملهم إلى أرواحنا.

لقد سحق القيصر "عقيدة روما" من أجل هواه ورغبته، وحبس نابليون آمال فرنسا الكبرى في شباك أطماعه، فقتلها، وافترس هتلر أحلام ألمانيا الكبرى بمغامراته، فقضى عليها بالموت. لكن فكر هذه "الملّة" المتفتحَ على الديمومة والتمادي، والمتّصفَةَ بُطولاتُه بالتكامل والاستمرارية، بقي مصاناً من كل إسفاف، ومعززاً كراية تفدى بالأرواح، سواء في الانتصار أو الانقهار. الفاتح اجتاح استانبول تحت تلك الراية ودَوّى صرخة في آفاق الغرب... وأنّ أنيناً. والقانوني رحل إلى "الأبعاد" مالئاً عينيه من خفقات ذلك اللواء الوارف على سفوح الغرب. وأبطال "جناق قلعة" كتبوا بدمائهم ملحمة مثل ملحمة "بدر" باسمه، ووفّى ابن الأناضول دَيْن الوفاء الأخير له، وهو محاصر بألف قحط وقحط، فَزَأَرَ كرة أخرى زئير قلب التاريخ المجيد: "أبدية المدة!.."[1]

(١) يومئ المؤلف بـــ"أبدية المدة" إلى معان ثرة مكنونة أو ظاهرة، ذات أبعاد عديدة. ولعلنا نفيد في إيـــضاح

يَبْلُغُ الفكرُ على يد رجـــل الفكر مقاماً فوق المقامات، ويصير سحراً للظفر بعد الظفر، وللنجاح بعد النجاح. فـــإن لم يكن ممثلو الفكر أهلاً لحمله، فيَبْعُد ذلك الفكر أن يكون رايـــة، ويغدو رمزاً صغيراً يجمع حوله سفسافَ صيحاتِ المطامع الدنيئة. إن رموزاً صغيرة كهذه قد تجمع حولها أولاد الأزقة وتقودهم إلى أهداف وغايات من لُعَب. لكنها لن تروِي غليل المشاعر في أعماق شعبنا.

إن رجل الفكر بطل للحب قبل كل شيء. فهو يحب الله حباً كحب مجنون، فيحس في ظل أجنحة الحب هذا بوشائج وثيقة تربطه مع الكائنات. فيحضن بشفقة كل إنسان، وكل شيء... ويضم إلى صدره إنسان الوطن بحب يبلغ حـــد العشق... ويداعب ويشم الأطفال كبراعم للمستقبل... وينفث في الشباب الاستحالة إلى إنسان مثالي، إذ يباريهم في بلوغ المقاصد السامية... ويُشرّف الشـــيب بأخلص التوقير والاحترام... ويفتح سبيلاً للحوار مع الجميع... ويقارب بين شرائح المجتمع المختلفة بمدّ جسورٍ مبتكرةٍ فوق المهاوي السحيقة الفاصلة بينها، ويضطرم حراً من أجل الملاءمة التامة بين الشرائح المتوافقة نسبياً.

ورجل الفكر الحقيقي، هـــو من أهل الحكمة أيضاً. فهو من وجهةٍ يستوعب كل شيء بدنيا عقله المحيطة سائحاً ومستطلعا، ومن وجهة أخرى: يزن كل شيء بموازين القلب المقدِّرة حق التقدير، ويمررها عبر مقاييس المحاسبة والمراقبة، ويعجنها في معجنة المحاكمة، ويصورها، ويقارن في كل وقت بين ضياء العقل ونور القلب كفرسي رهان في المضمار.

بُعد من الأبعاد إن نبهنا إلى أن دول الإسلام العظمى في التاريخ كالدولة العباسية نعتت بدوام العز والسعد إلى يوم القيامة. وكانت الدولة العثمانية تنعت بالدولة "العَلِيّة الأبدية المدة". فهنا إشارة إلى هذا البُعد، زيادة على إيماءات أخرى مثل أن الأمل في النهضة لم ينفَد، وأن الدين خالد، وأن طبع الفداء لن ينقطع، ولعـــل النهوض يبدأ من هذه البلاد. "وحناق قلعة" موضع شهد هذه المعركة الشهيرة في التاريخ، سطر فيها الجيش العثماني ملاحم فذة ورد جيش الحلفاء على أعقابه في الحرب العالمية الأولى، وذلك كـــان في ١٨ مـــارس ١٩١٥. (المترجم)

ورجل الفكر أنموذج للشعور بالمسؤولية إزاء مجتمعه. يضحي بكل ما وهبه الله، ومن غير تلكؤ وتذبذب، في سبيل أهدافه وأول أهدافه كسب رضاء الله... ولا يخاف ولا يخشى من شيء، ولا يهب قلبه إلا لله وحده... و لا يبالي برغب إلى السعادة، ولا بقلق من شقاء. لأنه بطل أسطوري للمعنى إلى درجة لا يأبه فيها بالاحتراق في نار جهنم، ما دام فكره ووطنه سامقاً وعاليا.

ورجل الفكر الراقي يستشعر التوقير للقيم التي وهب لها قلبه استشعاراً عميقاً كعمق المراقبة، ويمارسه بنشوة كنشوة العبادة، ويعيش دائماً رجل عشق وحماس لا يفتران. ويعلم كيف يضحي في سبيل فكره بالنفس والحبيب، والمال والجاه، والأهل والعيال، واليوم والغد، في آن كلمح البصر ومن غير توان، ويرجح دائماً وجهة فكره السامي مع مراعاة الحق والحقيقة بتدقيقٍ يشطر الشعرة أربعين شطراً. وهو حاكم على نفسه، ومحكوم بيد الحقيقة، وغير مبالٍ بالمقام والمنصب، وخائض في كفاح مستمر في أعماق قلبه بلطافة احتسابه الشهرة والطمع وحب النفس والرغب إلى الراحة، وأمثال هذه الأمور، سماً قاتلاً. ولذلك يفوز أبداً في ميادين الظفر، ويجعل مواقع الهزيمة ساحات تدريب فني للفوز والنجاح.

وهو في سلوكه طريق السامقين، مشدود شداً وثيقاً بحسابات الحق... حتى إذا صدمته عواصف الرغبات استقوى واشتد فيه حب الحق، وإذا توجه إليه طوفان الحقد والبغض، أطفح في روحه فوارات الحب والشفقة... وكم نعمةٍ يهفو إليها عامة البشر، يتجاوز هو عنها ماضياً في سبيله، وكم نقمةٍ يتصدى لها بصدره. وإذ نتخيله بآفاقه الحقيقية التي تذهل العقول، يطوف أمام عيوننا أطياف العزائم النبوية، وتنهمر على أحاسيسنا صور بشر فوق البشر من وَلَجات الأبواب التي تُفَرِّجها التداعيـــاتُ، ويفعم بيت خيالنا بالبطولات التاريخية... يطفح ويفيض، فيرتعش بوفاء وإخلاص عقبة بن نافع

في صحارى أفريقيا، ويذهل لشجاعة وحماس طارق بن زياد الذي يخلف وراءه "برج هرقل"[1] أثراً بعد عين، ويتطلع دهشاً إلى عزم وإقدام محمد الفاتح، ويُقَبّل السيف الذي أبى الاستسلام في "بَلَونة"، ويسلم -تعظيماً- على أُســـود "جناق قلعة" الذيـــن استقبلوا انفلاق المدافع والقنابل فوق رؤوسهم بالضحك والسرور.

ولسنا بحاجة اليوم إلى هذا وذاك، بـــل إلى أمثال هؤلاء من رجال الأفق الرحيب المثاليين بالشخصية السامقة. وسيتحقق في السنوات القابلة قيام شعبنا من جديد وكرة أخرى، على يد هؤلاء من أهل الروح والمعنى، ورجال الفكر السامق. هؤلاء الشجعان الذين خميرة وجودهم هو الإيمان والعشق والحكمة والبصيرة، لم ينحنوا أبداً أمام زخم الهجمات الداخلية والخارجية على مر القرون التسعة أو العشرة الأخيرة، ولم يتزعزعوا. ربما انكمشوا شيئاً قليلاً أو ضاقوا، لكنهم اكتسبوا صلابة البنية، فتماسك قوامهم إلى درجة كافية لتصفية الحساب مع المستقبل. وهم اليوم جاهزون لاستلام "النوبة" بقوة الروح الخارقة للعادة، يتطلعون إلى العصر بأبصارهم في ترقب نشط.

نعم، في القرون الأخيرة، شـــهد العشق والحكمة والبصيرة وحس المسؤولية ضموراً وانكماشا، وجاءت المسائل اليومية الطفيفة لتقعد في مكان فكر "الملّة". فلا يمكن الادعاء -بداهة- بحصول "تجديد" في هذه المرحلة. وما طرح في الساحة باســـم "التجديد" في هذه المرحلة لا يتجاوز التقليد الوضيع والتكلم بلسان الغير. هذه الهيكلية الشكلية التي يمكن أن نصفها بتلبس الفكر "الملي" بلبوس الفسق وتخريب روح "الملّة"، قد أضرت أكثر مما نفعت. وبينما كان الشعب ينـــزف دماً بسبب التخريب والهدم الواقع في بدن المجتمع، لم يُعرف الداء الحقيقي، ولم تُكتشف طرق المداواة، وأصابت

(١) المقصود جبل طارق. (المترجم)

المعالجات الخاطئة جموع الناس بالشلل. ولا زالت آثار نوبات الحمّى لمرض القرون الأخيرة تشعرنا بدوام العلة، لاستمرار فورانه الدافع "عن المركز".

لذلك، سنقع في خطأ بعد خطأ ونحن نبحث عن دواء، وسنصاب بنوبات بُحران أشد، وسنعجز عن الانفلات من دائرة الأزمات الفاسدة، اليوم أيضاً كماً في أمسنا، ما لم نتبصّر في الأسباب الحقيقية للمعضلات، ولم نعالج عللنا الفردية والعائلية والاجتماعية بحذاقة الحكيم، ولم نخرج من مستنقع "اللوثيات" الذي نضطرب فيه منذ عصور.

ولئن أصَرّ الذين يمسكون بالعنان على عنادهم الدائم عدة قرون، فنحن نؤمن يقينا بأن أجيال الفكر المثالية المتوجهين نحو المستقبل بحسهم وفكرهم وعملهم الحركي، المحبين لرسالتهم ووطنهم وإنسانهم بدرجة العشق، المتوترين كوتر القوس في انشدادهم إلى الخدمة والشعور بالمسؤولية، ستجتاز العقبات كلها وتنشئ تكوينات جديدة. فلا بد أن يسري العشق الذي في جنباتهم، وحبهم للخدمة إلى شرائح مجتمعهم كلها، فتشب براعم أينما سرى. وإذ يلغي هذا الفكر الواقعَ المادي والجسماني القائم، ويطرحه جانباً، لا بد أن ينقش كرة أخرى ديباج روحه الذاتي، حسب رؤيته الخاصة إلى العالم، وببرنامج حركته الذاتي.

"المعينية" إلى حد ما

إن تماسك أجيال الغد وقوامها وسعادتها، حاصل من حواصل الأرواح والأنفاس المضحية هذا اليوم. وإن انتظار مستقبل متكامل ومنظم من ركام البشر الضجر الشريد السـادر في الراحة والرخاوة، ليس إلا محض وهم وسلوان كاذب. المستقبل يتطور إلى براعم في رحم اليوم، ويربو برضاع اليوم، ليتماسك قوامه. وكما يحمل وجودنا اليوم سمات أمسنا، بخيرها وشرها، كذلك يكون الغد نسـخة من اليوم بصورتها المطورة والموسعة والمتحولة من الفردية إلى الاجتماعية. وإن حياتنا "المليّة" بألوانها وأحوالها الخاصة، تشبه نهراً يسيل متسرباً من جبال الماضي ووديانه، وسهوله وأريافه، فينحدر إلى المستقبل بتلوناته الخاصة. وإذ ينحدر نحو قابل الأيام، يحمل معه خصوصيات الأرجاء التي يمر منها. وسنرى إن أمعنا النظر في الشلال الذي ننحدر نحن أيضاً معه، آثار أقدام أجدادنا، وخلجات أرواحهم، ونتاجات أدمغتهم وعضلاتهم، وأفكارهم، وخفقات قلوبهم. فلا جرم أنهم منابع حياتنا، وأننا بأنفسنا وبحركيات تاريخنا، عصارة وجود الأجيال القادمة.

فإذا فهمنا هذه النكتة اللطيفة في التوارث، نعلم أن روح الأمة تحافظ على جدتها وشبابها وتبقى إلى "أبد المدة"، مهما هرمت أحوال الدنيا، وتبدل الزمان كلاً، وتغيرت العصور، وراح من جاء، وأعقب الآتون بعدهم من راحوا. ففي خط التبدل والتحول هذا، إذا انقلب أبو بكر إلى عمر بن عبد العزيز، وتحول عمر إلى الفاتح، وصار عليّ روحاً للغازي "بَطّال"، وتمثل أبطال بدر كرة أخرى بعمق محتواهم ومعناهم في "ملازكرد" و "قوصوة" و

"جناق قلعة"،[1] فإن ذلك يعني انشداد كل شيء بالأبد. وعندي أن هذا هو سحر التجدد والحفاظ على الشباب. والواجب أن نجعل زوالنا غداً فرادى، أساساً وعصارة لوجودنا وبقائنا "ملةً"، فنستقبل في سعادة وفرحٍ أشد أنواع الموت رعباً، حتى نضمن الأبد بأبعاده الدنيوية والأخروية. إن الأبطال الذين يجهزون غدنا، والذين تقصر عنهم تصورات المدن الفاضلة، هم أولئك الذين يستفيدون على أتم وجه من كل فصول العمر، من يوم إدراك الألوان الوردية للدنيا إلى عوالم الشباب المتوثب المزدهر ألوانا، ومن مرحلة النضوج المتميز بالصلابة والقوة والإرادة، إلى زمن الشيخوخة المكين والمستقر، فتراهم يوازنون كل خطوة من خطواتهم، ويحيون عمراً مليء الأيـــام، ويستعدون للموت في كل منعطف من منعطفات الحياة، ويموتون إذ يموتون ملتفتين بوجوههم قِبَلَ الأبعاد وغرقى في العشق. هم أولئك الأبطال المجهولون وصروح الروح المتحركة على قدمين، يسبقون إلى الأمام أبداً، ويظهرون في الخلف دائماً، يعيشون حياة من يترك ذكرى لطيفة لأجيال، ولكنهم يَجِدّون في تحقيق لقاء الموت بملاحظة أن يقال: مات مسكين ههنا!

فإن عجزنا في زماننا هذا عن إعداد أبطال كهؤلاء، أو عن منحهم فرصة تمثيل الحركيات المذكورة آنفاً، أو عن حياكة فصول العمر المختلفة بمغزل حركيات هذا الروح والمعنى، فلن نستطيع أن نَعِدَ بشيء باسم المستقبل، ولا أن نديم وجودنا في الأيام المقبلة. فإذا اقتنعنا بأن المرحلة التي نحن فيها أساسٌ للجزء الذهبي من الزمن المقبل، فينبغي أن نستفيد أقصى استفادة من هذا الأساس بالبصيرة والشعور والإدراك والصبر، وتجهيزه للمستقبل بالحفاظ على الروح والجوهر، مع إشباع جوانبه المفتوحة للتفسير بخزائن تجعله قادراً

(١) الغازي في التركية بمعنى المجاهد و"بطال غازي" من المجاهدين في جيش الدولة العثمانية، أبلى بلاءً حسناً في الحروب وأصبح بطلا أسطوريا يضرب به المثل في الشجاعة والإقدام. وملازكرد، وقوصوه، وجناق قلعـــة وقائع مشهورة. (المترجم)

على احتضان المستقبل. ولا محيص من تلك المحذورات المذكورة آنفاً إذا ما أهملنا المتطلبات اللازمة. فلا يصح في روح الدين وقواعد "الشريعة الفطرية"[1] إهمال الأسباب، ثم توقع حصول النتائج المتعلقة بالأسباب، أعني من جهة العلية بداهة. وما نشهده دائماً في صدر الوجود من "مُعَيَّنية"[2] (Determination) بقدر معلوم وشروط متعلقة بظروفها، جارية في أحداث التاريخ أيضاً. إن البشر والحوادث السالفة في الماضي والتي صارت تاريخاً، هي اليوم شبيهة بالحيوانات المنوية المودعة في حضائن اللقاح، أو بالبيوض في بيوت التفقيس أو تحت عقدة الحياة... وتُعَدّ مصدراً لإضفاء الصورة على الحاضر. وإن الأسباب المنثورة اليوم –من جهة العلّية– كالبذور على سفوح التاريخ، هي عوامل تُعَيّن نتائج الغد المتسمة ببُعْد الحكمة وصبغة العدالة وسلوكية الاستقرار ومعادلة الاستقامة.

أوَلَمْ يتكرر هذا دائماً وحتى الآن؟ أليست الأيام السوداء التي شهدناها في مرحلة معينة، وليدة "لوثيات" المرحلة التي سبقتها؟ ألم يفر تنور الطوفان في الأرض التي يدوس عليها المخبولون المعاندون للنبي نوح عليه السلام؟ أليست الأعاصير الثائرة في "الأحقاف" تدميراً من أجل تطهير الأرض التي دنستها "عاد"؟ وهل أضحية "سدوم" و"عاموراء"[3] إلاّ فدية الأرض للسماء؟ ألم تنسحق "الهند" تحت الأحذية الانكليزية سنين في الماضي القريب بسبب اعتبار قسم من أهل الهند لآخرين منهم "منبوذين"؟ ألم يكن التفسير الخاطئ للكون والتفرق والجهل سبباً لنهش الأقوام الآسيوية بعضها لبعض في العهود

---

(١) المقصود من الشريعة الفطرية مجموع السنن الإلهية التي فطر الكائنات عليها وأجراها فيها. فهي بهذا المعنى شريعة فطرية وقوانين إلهية واجبة الطاعة والمراعاة. (المترجم)

(٢) المعينية: الخصلة التي تحقق ذاتية الشيء (عند هيجل)، وتختلف "وضعية" الشيء عن المعينية بأنها تحدد العلاقة بين الشيء مع الأشياء الأخرى. وفي المعينية تكون عائدية الخصال والصفات إلى الشيء بذاته وعلاقاتها فيما بينها ذاتيا وفي نفس الأمر. (المترجم).

(٣) "سدوم وعاموراء هما –حسب المعلومات التاريخية– مدينتان كنعانيتان في جنوبي البحر الميت أبادهما الله لشيوع الفساد حوالي القرن التاسع عشر قبل الميلاد. ولا زالت بعض آثارهما شاخصة. (المترجم)

القديمة على يد جنكيز خـــان وهولاكو وأمثالهما؟ واكتوائهم في البأســـاء والضراء في العهود الجديدة على يد الشيوعية والاشتراكية والرأسمالية؟ وما لنا نحوم في الأجواء البعيدة... انظروا إلى الذين غدروا بدولة عالية، كانت عنصر موازنة في المنطقة المباركة التي امتدت عليها حتى أوائل القرن العشرين من أفريقيا إلى البلقان ومنها إلى أجزاء من آسيا، وأمة مجيدة، ألم يصبهم وبال ما صنعوا أضعافاً مضاعفة؟ وماذا عمل صراخ "قرطاجة" الآيس، ثم عويل النصارى الأوائـــل المفزع، وأنين المظلومين جميعاً في الإمبراطورية الرومانية الشاهقة؟ ألم تسقط قاعاً صفصفاً؟ وانتزاع لنين وستالين وهتلر وموســـوليني من بـــدن الإنســـانية كورم خبيث، بتماثيلهم وعواطفهم وأفكارهم، أليس ذكرهم باللعنات اليوم بسبب طغيانهم الذي فاق طغيان أعتى جبابرة التاريخ؟

إن المسلمين الأوائل، المظلومين والمغبونين، قد أغرقوا أعداءهم في بحر تخاصمهم فيما بينهم، ونشروا الألوية في أرجاء الأرض بعدالتهم. فكانت "بـــدر" و "فتح مكة" عنوان حاكمية الحق والعدل، وكانت "أُحد" عنوان ظفر المظلوم والمغبون. وظلت الانتصارات تترى مـــا دام الســـيف في كنف القلب... وحتى المواقع الظاهرة بسيماء الهزيمة تحولت في تلك المرحلة المباركة إلى ظفر وفوز، وازدانت "أقواس نصر" على الطرق الموفية إلى المستقبل. ونقيض ذلك، إذا انتقل السيف إلى كف القوة، ووُثّقت ألسن القلب بالأغلال. ألم تخلف -إذ ذاك- كل حاكمية مادية، متلبسة بلبوس النجاح، فشلاً وهزيمة في الأرواح؟ فحولت وتيرة الظفر والفوز إلى ميادين تصول فيها الحسرة والهجران؟

فمهما كان الاسم والعنوان، فالشر يلد شراً، والظلم ينقلب إلى مظالم تدور حول حلقة مفرغة ودائرة فاسدة. والذين يزرعون الفتنة، أمس أو اليوم، يحصدون الشر، والذين يزرعون فسائل الخير يجنون ثمار الخير والبركة.

وفي الواقع، ربما تعرضت نتائج مساعي الخير والشر إلى إمهال مؤقت، لكنها ظهرت وبرزت حينما أينعت، فأذاقت الظالمين الآلام في حسرتهم، وصارت وسيلة لإنقاذ المظلومين وإسعادهم. وقد تنقضي سنوات أو عصور بين السبب والنتيجة. ولكن حين حلول "الوقت المرهون"، والإحساس بالأثر، تغدو النتيجة عين الجنة للأبرياء، وعين الجحيم للعصاة والظالمين.

ويمكن أن نفسر ذلك كله بالمُعَيّنية -أو بالتناسب بين السبب والنتيجة- التي في روح التاريخ بمعنى من المعاني، أو الأصح والأصوب: أن نشرحه وفاقاً لروح العدالة في الشريعة الفطرية، أو نتقبله سبباً في تكرر التاريخ. ومع أن الأسباب القابعة خلف حوادث التاريخ كثيرة لا تحصى، لكن القدير المطلق جعل الأسباب ستاراً لمشيئته وقضائه، وأحاط دنيانا بها. فهذا لطف إلهي ذو حكمة -كما هو في الإرادة- وهبه الله تعالى للإنسان. وهو وسيلة لنا وزينة لازمة نتزين به لتنفيذ التكاليف التي علينا.

من هذه الوجهة: قد يكون دبيب تحرك صغير بدايةً لكيان كبير بعد سنوات وسنوات، وقد تحصل نتائج وخيمة تزلزل العصور من قناعة خاطئة أو تصرف سقيم.

ولذلك، يحق لنا أن نترقب نسيجاً مباركاً بألوان الغد السعيد يحظى باهتمام الإنسانية جمعاء، من هذه النقوش الصغيرة التي تغزلها بمغازل أفكار الخير أجيالٌ محظوظةٌ في الزمن الحاضر.

فلسفة الحياة عندنا . . .

يعيش قسم من البشر من غير ممارسة للفكر. وقسم آخر منهم يفكر، ولكن لا يعكس فكره على واقع الحياة قط. أما ما ينبغي فهو أن يعيش الإنسان وهو يفكر، وأن يبتكر أنماطاً فكرية جديدة إذ يعيش، فيتفتح على آفاق مُركّبات فكرية مختلفة. والذين يعيشون من غير فكر هُم دُمى تُمثّل فلسفة حياة للآخرين. هؤلاء يلهثون للتغير من شكل إلى شكل، ولا يملّون تبديل قوالبهم، ويضطربون ما عاشوا في الانحراف بين الشعور والفكر، والانـــزلاق في الشخصية، والتمسّح بين الصورة والسيرة. وقد يتقاسمون حيناً حظوظاً حصل عليها المجتمع، ويستفيدون حيناً من توافق مجرى الأمور -وكأنها تترتب حسب تفكيرهم وحسهم وإرادتهم- لكنهم لن يريحوا أرواحهم البتة بالمحاسن والفضائل الإرادية، ولن يَشبّوا بها إلى العلى، ولن يوجهوها إلى اللانهاية. هؤلاء يشبهون برك الماء العقيمة والمحرومة من البَرَكة والخامدة والمعرضة إلى الأُسون. فلا يبعد أن يتحولوا بمرور الزمان إلى مجمع للفيروسات ومأوى للمكروبات، بَلْه أن يفيدوا بشيء باسم الحيوية.

وهم ضحالٌ فكراً وسطحيون رأياً إلى درجة كأنهم أطفال يقلدون كل ما يرون ويسمعون، وينجرون وراء الطغام هنا وهناك، ولا يجدون سانحة للإحساس بأنفسهم والإنصات إلى دواخلهم وتمحيص قيمهم الذاتية... بل لا يشعرون البتة بوجود قيم تخصهم بأنفسهم. فيحيون كعبيد لأحاسيسهم الجسمانية والبدنية عبودية لا انعتاق منها. ويُسَخّرون كل شيء حصلوا عليه، ويحصلون، لخدمة الجسمانية في إطارها الضيق، ويغيّرون أعظم الألطاف التي وهبها الله للإنسان، كالقلب والإرادة والحس والشعور، إلى وسائل رخيصة لملذاتهم البدنية، ويقضون أعمارهم في بوهيمية. المقام

والمنصب والشهرة والمنفعة والحرص على الحياة، من أهم العوامل التي تُعيّن حركة هؤلاء وفعالياتهم. وسواء أعرفوا أم لم يعرفوا، فهم يقعون كل يوم في واحد أو أكثر من هذه الفخاخ القاتلة، ويذبحون أرواحهم مرات بسكين أرذل أنواع الموت.

وليس لأمثال هؤلاء ماضٍ ولا مستقبل، ما داموا يرددون قول عمر الخيام: " لا تَشغل البَال بماضي الزمان/ ولا بآتي العيش قبلَ الأوان/ واغنم مِن الحاضرِ لذّاتِه/ فليسَ في طبعِ اللّيالي الأمان"، ويتبعون غرائزهم الحيوانية، ويرون الدنيا عشبا ومرعى، ويحيون راغمين أنف مشاعرهم ومَلَكاتهم الإنسانية. فلا ينفكون من التقلب المضطرب في المستنقع و"اللوثيات".

أما الذين يعيشون حياتهم مفكرين، ويجعلون -حسب درجاتهم- كل يوم، أو كل ساعة، من حياتهم ميناءً أو مرسى أو طريقاً للأفكار المبتكرة، فهؤلاء يمضون أعمارهم في خوارق العيش ما فوق الزمان، ومفاجآته وسحره، فيتجرعون الماضي كماء نبع مبارك، ويتنفسونه نفحةَ رائحةٍ في رئاتهم، ويطالعونه ككتاب، ويسيرون إلى المستقبل بهذه العُدة... ويحضنون الزمن الآتي بحرارة قلوبهم، ويلونونه بآمالهم، ويصورونه بعزمهم وإرادتهم... ويحتسبون الزمن الحاضر مركزاً استراتيجياً لتنفيذ أفكارهم المثالية، ومصنعاً لإنتاج التقنيات الضرورية في هذا السبيل، وجسراً للعبور من النظري إلى العملي... وَيَجدّون دوما كي يكونوا فوق الزمان وفوق المكان.

فهُم من وجهة يطالعون الوجود والزمان في هذا المستوى، ومن وجهة أخرى ينسلخون من ضيق الحياة الجسمانية وينفسحون في رحاب عالم الفكر ويسيحون -وهم في هذه الحياة الفانية الموقوتة- على سفوح ممتدة إلى اللانهاية في عالم آخر ذي بُعْدٍ أبدي... يسيحون ويدفعون عربون اللانهاية بأفكارهم وأحاسيسهم وآمالهم، ويتعايشون مع مشاعر اللانهاية، ويتطلعون إلى ثراء الكينونة الإنسانية في أغوار الرحاب اللَدُنّية التي حفروها في مغاوص

قلوبهم، ويجدّون في اصطياد أنواع الفجاءات بالشِباك التي نشروها في قلوبهم مما لا تبصره الأعين ولا تستمع إليه الآذان ولا يتصوره خيال الإنسان. فترشدهم علومهم ومعارفهم ومكتسباتهم العالية فوق المستويات، إلى ما هو أعلى، بل أعلى المعالي، ويؤمّل كلّ منهم أن يكون عُقاباً سماوياً. فهؤلاء الذين يحيون حياة كهذه، ويجعلون أعمارهم مزارع لأشجار الفكر، سَمّوهم إن شئتم أهل الحكمة، أو أبطال الفلسفة ذوي الهدى، وعرّفوهم كما تشاءون، لكن اعلموا بأن رجال النور الذين يحيكون التاريخ برقة وظرافة نسيج الحرير، قد ظهروا دائماً من بين هذه الأرواح العالية، على مر الزمان الممتد من العوالم القديمة إلى عصرنا الحاضر. وحتى أنظمة البراهمية والبوذية والكونفوشية والطاوية والزرادشتية، التي تشبه النظم الفلسفية وليس الأديان، هي هدايا أبطال الروح إلى الإنسانية.

فإن ألحان صروح الفكر هؤلاء، تسمع دوماً في خرير تيار الفكر المديد إلى الماضي. إن الرؤى المختلفة إلى الحياة وأنماط الحياة المتنوعة وأحواض الحضارات العالمية والثراء الثقافي في الجهات الأربع من العالم القديم والجديد، كانت دائماً من نتاج بيادر الفكر لهؤلاء الأبطال. فمع كل هذا التبديل والتحريف والإبعاد عن الأصل الذي أصابه، يمكننا أن نقول باطمئنان تام إن القسم الأعظم من البشر في الأرض لا زالوا يتبعون آثار ذلك المحتوى والمعنى والروح القديم -مهما تعسر التأليف بين الحياة المعاصرة وبين هذا القول- وأظن أن الضرورة قائمة لكي نتقبل استمرارية الأخطاء -كحالة طبيعية- بحسن الظن وحسن التأويل، وذلك إلى أن يجد "الممثلون" الأبطال الأمورَ التي لم تتعرض إلى التحريف والتبديل من تلك المرجعيات.

وبناءً على ذلك، ما يجب علينا اليوم -ونحن نستعد للتجديد مرتبطين بأوثق الروابط بجذور معانينا الذاتية- هو أن نجهّز الأبطال الذين يجيدون تلقيح أنفسهم بأمصال الوقاية المستخرجة من ذات أرواحهم... الأبطال

المُنْشِدون القادرون اليوم على أداء الكلمات لأناشيد ماضينا من غير تعثر بشيء أو بعائق، وعلى استشعار توقد الحماس في قلوبنا المتجددة كل مرة بتلون آخر.

والواقع أننا سوف يطالنا خراب عظيم على أيدي صناعٍ أجانب أغرارٍ، لحين إعدادنا وتجهيزنا لهؤلاء الأبطال. وإبّان ذلك، ستشتغل الإنسانية جمعاء أيضاً بصب أساطيرها القديمة لملء فراغ القيم الأزلية الكونية التي تبحث عنها بوجدانها فلا تعثر عليها بعقلها... فتتقلب من فقدان الطمأنينة إلى دوار الأزمة، ومن دوار الأزمة إلى تخريبات جديدة.

لقد غابت عن واقعنا منذ قرون منظومة فكرية ذاتية، وفلسفة حياة ذاتية، تعتمد على الحركيات الإسلامية التي تشكل جذور المعنى لثقافتنا "الملّيّة"، فتشتتنا شذر مذر، نحن وعالم كبير مرتبط بنا. ومن الضروري أن نميز بين النسق الفلسفي والفكري لمترجمي نظام الفلسفة اليونانية المتجمعة في الحوض الفكري لأرسطو، من أمثال الكندي والفارابي وابن رشد، وإلى حد معين ابن سينا، وبين نسقنا الفكري وفلسفتنا في الحياة، الموصولة الجذور بالسموات، القديمة كالأزل، لكن الجديدة، بل الأكثر جدة من الجدة ذاتها، إلى درجة القدرة على استيعاب كل العصور، والمنضودة من الحكمة والحِكَم. فموضوع نسقنا الفكري قائم على تفسير ذي تنـــزل من اللاهوت والجبروت والملكوت والناسوت، ومعلوم المنشأ ومنوّرٍ، ومعتمدٍ على حقيقة الخلق. فإذا استطعنا أن نتفهم هذا التفسير والتأويل بنكاته الذاتية، نكون قادرين على إبراز نظامنا الفكري. وهذا يعني في الوقت نفسه افتتاح طرق واسعة تؤدي إلى تجديد جاد على مستوى العالم كله.

لقد بذلت الجهود في سبيل نظام فكري كهذا مرات كثيرة منذ عهد محمد الفاتح -جعل الله مثواه الجنة- لكنها لم تبلغ الغايات المرجوة منها. هذه الملاحظة يمكن أن تتعرض إلى المناقشة من بعض جوانبها، لكن الحال

هو هذا عموماً. لقد جَدّ الكثيرون في أن يستجيبوا لمثل هذا البحث والترقب في الوجدان الاجتماعي العام، كأمثال خوجه زاده والملا زيرك، أو مصطفى رشيد باشا ومهندسي "المشروطية" (الحكم الدستوري)، ومنهم إلى كثيرين من عمال الفكر في المرحلة الحديثة، الخالصة نياتهم وغير الخالصة. لكن بعضهم تعثر وتوقف عند "تهافت" ابن رشد والإمام الغزالي، وبعضهم غرق في دوامات الثورة الفرنسية واوغوست كومت، وبعضهم تلهى وانشغل بهذيان دركهايم... ولم تكلّ الحركة أبداً، لكن لم يحسبوا حساب العصر حيناً، أو تراكضوا وراء الأحلام وحدها، أو اتخذت الأهواء والرغبات آلهة من دون الله فتبدد في الحيرة والضياع ميراث ألف سنة من القيم "الملّيّة". ويا ليتنا استطعنا الآن أن نتجاوز هذه السلبيات... هيهات هيهات! فلسنا ندعي أننا ننظر بعين الرضا إلى هذا الجانب من واقعنا. فكم أتمنى أن نتجاوز السلبيات كلها، وأن نطور نظاماً فكرياً وفلسفة "مِلّية" تتغذى من مصادرنا الذاتية!

وأشير هنا إلى أن آراءنا ستتناقض مع بعضها باستمرار وسينهش بعضنا بعضاً في فخ "التعارض والتساقط"، بسبب الاختلاف في زوايا الشعور والإحساس بالكائنات وتفسيرها، ما لم نُقم ما نبنيه على قاعدة فكرية راسخة كهذه، وما لم نمتلك نظاما فلسفياً كهذا. فيجب تحقيق عائدية مستقبلنا إلينا، مثلما حاضرنا، بهذه الأصول، وبهذا النظام، وبفيض أسلوب تتقاسمه الأجيال جميعاً. فإذا لم تتحقق الوحدة في مشاعرنا وفكرنا ونمط حياتنا، فستظل الوحدة "الملّيّة" والتضامن "المِلّي" أُمنية حماسية. فالمنطلق "الملي" والفكر "الملي"، والمحاكمة "الملّيّة"، وواردات الروح، أمور بالغة الأهمية في أي نظام من الأنظمة. فإن أي نظام فكري يستطيع أن يحقق وحدة الحس، ووحدة المنطق، ووحدة المحاكمة، وسهولة التعايش معاً لشعب من الشعوب، بالمقياس والقدر الذي يستمد من عقل الشعب ووجدانه وعالم أحاسيسه... وعلى الضد إذا تصادمت المشاعر والأفكار والتفاسير

والأساليب، وتناقضت المحاكمات، فإن تزاحم الحركة في هذه الأحوال، لا يعني كثرة البركة البتة. ودع عنك البركة، فكثيراً ما يؤول المصير إلى الاضمحلال في هذه الأوضاع. إن كل حملة وجهد في المجتمع الذي يعاني من فوضى في الفهم والتفسير يشبه أمواج البحر المرتطمة ببعضها، إذ تتكاسر دوماً وتنصبّ إلى حوض عطالتها وتلف وتدور في فراغ الدور والتسلسل الفاسد. ولعلنا نجد بالتمحيص حكمةً في تكاسر أمواج البحر بالارتطام مع بعضها، لكن أمثال هذه المصادمات في المجتمع لا يخلف إلا التعفن والانحلال وإهدار النفس. ففي مثل هذا المجتمع، يكون كل فرد ذئباً يفترس الآخر، وكل فكر برنامجاً للموت. ومع أن السماء تمطر رحمة على مثل هذا العالم، لكن الهيئة الاجتماعية تبقى تحت تهديد عُنّتها. وكذلك تبقى القيم التاريخية فيها معرضة إلى الانخراق والتمزق، وتبقى المقدسات مهددة بالتبدد. ولا محل للوفاء عند الكهول في الركام البشري لهذا المجتمع، ولا مكان للفتوة عند شبابهم. فالقوى الفتية والحركية المأمول منها أن تسمو بالمستقبل كسارية العلم على هاماتها، هي التي تحتقر الراية وتشتم الماضي من جهة، وتحسب المستقبل ساحة جنون لإجراء رذائلها من جهة أخرى... أما الكهول والمثقفون الذين سلموا أنفسهم للامبالاة المفزعة، فيتصرفون كمشجعين لفكر "اللوثيات"... فتراهم يثيرون البوهيمية في الأرواح ويصبّون ماء النار على البصائر، بأقوالهم وكتاباتهم ورسومهم وبرامجهم في وسائل الإعلام.

وفي مثل هذه المرحلة، لا تحفز مآوي العلم عشق العلم وفكر العلم في الأرواح... ويلعب أصحاب أيديولوجيات معينة بالذين يمثلون القوة وكأنهم دمى، يفترس بعضهم بعضاً... ويضطر المنطق والمحاكمة والإلهام على المسير في الممرات الضيقة للرموز والإشارات... وبدهي أن الحياة بذاتها تكون تعذيباً للحياة في مجتمع كهذا، عامرٍ بالنقائض والمخالفات، مقدّمٍ للرغبات والأهواء على الفكر.

والحال أن نظام الفكر وفلسفة الحياة عندنا رحيبة، تتناول عوالم الوجود، وما عدا الوجود، وما قبل الوجود، فتقيّم الأشياء وما عدا الأشياء في كلية، وتعيّن معالم نمط الحياة في تكامل وإحاطة. فهو نظام يحقق العدالة الكونية المرتقبة في الأرض كلها بتحويل السلوك الأخلاقي إلى حال السيولة في المجتمع وأجزائه الأفراد، ويستجيب للمتطلبات الإنسانية، فيصل المجتمع في ظل ذلك إلى القدرة على تجديد نفسه ذاتيا بالتربية على الروح والأخلاق والفضيلة والتفكر. ثم يكون فكرنا الحضاري وغنانا الثقافي كسلعة رائجة في كل أقطار الأرض، فنغدو اليد المعطاء التي تقدم في ارتياح هبات فكرنا الإنساني وفلسفتنا الأخلاقية وفهمنا للفضيلة ومتلقياتنا للعدالة. وبفضل هذا الوضع والمستوى أيضاً، تنبجس الحركيات الإدارية والأصول الاجتماعية والاقتصادية في الدولة، كما في مصادرها الأخرى، من الروح الذاتية للأمة، فتتحرر من أنواع "المقيِّدات" كلها. إن "التقيّدات" الضمنية المضروبة على رقابنا حتى الآن كالنير، بسبب نقاط ضعف فينا أو مديونيات علينا، ومهما كانت خفية غير جلية، عَرّض نظامنا الإداري، وأنظمتنا الاقتصادية والسياسية والعدلية إلى العطل والفشل، وأصابها بالشلل. إن أبناء أرومتنا الذهبية الذين جعلوا الأناضول أرقى بلاد الأرض عمرانا قد نسجوا أو أنشأوا أنظمتهم الإدارية والسياسية وتشكيلاتهم العدلية، بمستلزمات الروح الذاتية. فلم يسمحوا لفكر أو لمؤسسة أو لَتَلقٍّ أن يجتاز من أبواب هذه المؤسسات التي تُعَدّ "بيوت الحرم" للأمة، ما لم يُقَيّم بالمقوِّمات والمعايير الذاتية. ودع عنك أن يأذنوا بذلك، فهم لم ييأسوا حتى حين انسحابهم جانباً وقد أثخنتهم الجراح مغلوبين إلى مدة، بعد حرب ضروس مع العالم كله، ولكن مع بريق الأمل، مهزومين ولكن مع الإيمان. فلم يتوانوا عن إلقاء أيديهم إلى التهلكة لحماية أصل حياتهم الذاتية، وتراكموا حول الشعور التاريخي، وعضوا عليه بالنواجذ -حسب إفادة الحديث النبوي- على الحركيات التي يدينون بوجودهم لها... فكانت نواصيهم عالية، وتَلَقّياتهم

عن الدنيا والعقبى موزونة، وأنفاسهم حرى، ماضين نحو "إحياء" جديد...

وقد نستطيع أن نكون مثلهم، وقد نتقدم عليهم، ونحن نترقب فجراً يتبع فجراً في هذا الزمن، إذا قيّمنا الدنيا التي نعيش فيها تقييماً صحيحاً من وجهة أفق الحكمة الذاتية، ففسرنا الأشياء والحوادث تفسيراً صحيحاً، وشخّصنا المتطلبات الأساسية لبناء إنساننا الداخلي، وانشددنا بفكرة التواجد والحضور إلى الأبد. وما الذي يعيق الأجيال البصيرة عن تقدم الصفوف، ما دامت قادرة على تقييم الماضي والحاضر والمستقبل على صعيد واحد، وحامية لأعراف المجتمع وتقاليده وحركيات تاريخه، وماهرة في تفسير تكرر التاريخ باتجاه تحديد الذات؟

ومن المفيد أن نذكر مرة أخرى بأن مسؤوليتنا الأساسية اليوم هي إشعار وجدان الأجيال بمؤثرات الكدح المبذول منذ عصور مديدة، والعقائد الإيمانية المتشربة في النفوس، والثقافات المتأصلة الجذور، على قدر أعماقها في ذاتها، وذلك بتطوير حس التاريخ في الأمة. فإذا نجحنا في هذا، فلن يخطر على بال أحد بعد جيلين أو ثلاثة أجيال أن يعيش فوق تراب هذه البلاد، ثم يستعير لمؤسسات الشعب المتنوعة مصادر أجنبية عن حركيات روحنا ومعنانا.

نعم، نحن نجلب عناصر حياة الغد من ماضينا. فإن استطعنا أن نعجنها في معاجن ثقافتنا الذاتية بنور الدين وضوء العلم، نكون قد جهزنا خميرة أبديتنا.

أجيال الأمل – ١

إن أجيال الأمل باعتبار الزمن الحاضر هم ممثلو العلم والإيمان والأخلاق والفن، وهم مهندســو الروح لمن يأتون بعدنا. وسيشكّل هؤلاء تكوينات جديدة في كل شريحة اجتماعية بتفريغ حرارة الإلهام لقلوبهم المتغذية بالأخرويات إلى الصدور المحتاجة إليها. وإن ضيــاع حظ كثير من الأجيال في تاريخنا القريب، وهدرهم، بل سقوطهم في الجنون والهذيان، كان بدرجة كبيرة لعدم التقائهم بمثل هذا الجيل الأمل.

لقد عشنا في القرن الأخير، أو القرنين الأخيرين، هزائم متتالية حتى في وسط النجاح! وكثيراً ما خسرنا في سياق النصر! ففي تلك المرحلة التي كنا نفترس بعضنا البعض كالذئاب، خلفنا للأجيال الآتية من بعدنا إرث الحقد والبغض والتعصب السياسي. ففي تلك المرحلة لم يَخْلُ الذين خاضوا في السياسة أو الذين شاركوا فيها من خارجها على السواء، إما من احتساب كل وسيلة لتصدّر فريقهم وكوادرهم وسيلةً مشروعة، وإما من توهم أن استلامهم للحكم يغير كثيراً من الأمور أو ينقذ الوطن. ولم يفهم الطرفان يقيناً بأن الوصول إلى المقاصد المرجوة لن يتحقق إلاّ بانقلاب يعتمد الدوران في فَلَك الإيمان والعلم والأخلاق والفكر والفضيلة. ولأنهم لم يدركوا ذلك، ظنوا أن التغير والانعطاف الكبير المرغوب فيه، هو هذه التغييرات الجوفاء والخاوية من المعنى، والصوريــة، والشكلية، وتشبثوا متعلقين بأذيال تغيير المكياج والأصباغ والألوان في عملية الترميم التاريخية الكبيرة. وزد على ذلك، أن بعضهم باع للشيطان فكرة "الملّيّة" الراقية بأشــياء بخسة وكأنه

"فاوست"[1] غرٌّ لأنه غريب عن قيمنا "الملّيّة" الحقيقية. و لم يَملّ هؤلاء من الاضطراب المستمر حسب متطلبات الحال من حيث المنافع والمطامح المتقلبة، من أجل صياغة شكل للملّة على صورة معينة يوماً، وعلى صورة أخرى يوماً آخر... بل الأصح على إظهار "الملّة" بهذه الصور الشاذة العجيبة. فتنفسوا هواء "الطورانية" مرة، وهمهموا مرة بمقولات "الشعب، الفلاح، القروي". وقضوا وقتاً مع "الأرستقراطية" مرة أخرى، ثم قالوا: "الديمقراطية"، وغمزوا "للشيوعية"، ... لكنهم لم ينجوا من الهَيْم على وجوههم أبداً! فاتخذ مثقفونا خاصة، حلم فرنسا، والإعجاب بانكلترة، والرغبة في ألمانيا، وعشق أمريكا والشوق إليها، حركياتٍ لتفسير الحياة وموانئ لرسو السفائن المبحرة إلى المستقبل، بنَهمِهم المختلط والفاقد للمعايير، وحسب تقلب الزمان.

وكان الحال يقتضي أن تُرسَّخ الفكرةُ المشتركة بيننا كشعب، وأعني الدين والعاطفة الملّيّة، على القواعد المتينة والرصينة التي تسمو فوق كل الأحلام والمتخيلات وتتجاوز حقائق الأرواح المنفردة، وتعتمد على الإيمان السليم المتين، والفكر المتأصل، والأخلاق المستقرة، والفضيلة المتمكنة من الأرواح. فمثل هذه الحركة تستطيع أن تَعِد الأجيال القادمة بالخلاص المأمول... حركة أخلاقية ثابتة التوجه، منفتحة على الامتداد والتغيير في فَلَك ثرائها الروحي والمعنوي الذاتي، غير متزحزحة عن محور "رضا الله"، موصدة الأبواب تماماً في وجه المنافع والمطامح. وبعكس الحال، سنعجز عن احتضان الروح والمعنى الخاص "بملّتنا" ذاتياً، وإحاطته بالحماية، وإيصال الأمانة إلى الأجيال القادمة بأكمل خصال الأمناء، ما دمنا في انتقال على

(١) فاوست: ساحر ألماني قيل إنه باع نفسه للشيطان لقاء الخيرات الأرضية. اتخذه بعض الشعراء بطلاً لمؤلفاتهم، ومنهم غوته في مأساة شهيرة. (المترجم)

الخطوط المنحرفة باستمرار، وفي غبش الإيمان المختلط الذي لم يبلغ اليقين في قلوبنا ومفاهيم التوجهات المختلفة والتَلَقيات الحضارية المتنوعة في عقولنا.

لا يغيب عن العارفين بهذه المراحل المضطربة ما فقدناه، وما ضيعناه من قيمنا الذاتية في الماضي القريب. ولم نكفّ إبّانها عن التفكير بابتكار أسلوب جديد وفلسفة حياة جديدة، تُبعد عنا المفاهيم المختلفة اختلافا بيّناً، والتَلَقّيات البعيدة عن بعضها بعداً شاسعاً، والأفكار المتناقضة تناقضاً كلياً. لكن هيهات، هيهات. فكم عمرٍ انقضى هدراً، وما زلنا نسلو بخيال أن نبتكر أشياء جديدة! ويبدو لي عسيراً أن نجد أسلوباً جديداً وفلسفة حياة جديدة بعد اليوم، كما لم نجد في السابق. ذلك، لأننا لا يمكن أن نصل إلى مركّب فكري جديد وأسلوب مبتكر في التعبير عن الذات من دون احتضان لجذور الروح والمعنى في حياتنا الذاتية. لقد فشلنا في بلوغ نظام فكري جديد وأسلوب مبتكر... بل زد على ذلك، أننا عشنا باستمرار غثياناً واضطراباً تحت تأثير مُناخٍ كثير الأشواك، وكأننا مضطرون إلى الإحساس بأشياء عديدة في وقت واحد! وإبّان ذلك، أُهدِرت عبثاً هنا أو هناك فرصٌ سنحت لنا، وطاقات كامنة للقوة والمنعة.

ومهما بدا علينا وكأننا نعمل شيئاً منذ قرن أو قرنين، فإننا لم نُقِم أثراً نطمئن إليه أو نُغبَط عليه، يجسد إيماننا المنساب إلينا من أعماق تأريخنا ونمط فكرنا وأخلاقنا وثقافتنا وفننا واقتصادنا. ولئن أجريت في مراحل معينة مداخلات جراحية تأجيجاً للأحلام أو لأهواء الشباب، لكن لم نسمع إلا جماً كثيراً من الأمنيات الخادعة عن حاجاتنا الحقيقية مثل تفسير العصر وتقييم العلم وتفهم حكمة الوفاق والاتفاق والتغلب على الفقر الذي يقصم ظهرنا منذ زمان طويل. إن نجاتنا من هذا الذهاب الذي يحبسنا في حواسنا فيلهينا، ومن الأفكار الهزيلة، سيتحقق على يد أبطال الإدراك والبصيرة واللدنيات الفاهمين للعصر والعاشقين للحقيقة بشُبوب اشتياقهم للعلم،

والمُحْدَودَبة ظهورهم تحت ثقل المعضلات الحقيقية الحاضرة والقلق المتصور في المستقبل، والمنعكسة دواخلهم على سلوكهم وتصرفاتهم، والمتنفسين هواء قلوبهم، والمتطلعين دائماً إلى ما خلف الآفاق... أبطال اللدنيات الذين يئنون بآلام الأجيال إذ يسعون للنهوض بها إلى درجة معينة، ويحولون مستقبلها الكدِر إلى دموع في أرواحهم فينوحون نواح أيوب عليه السلام، ويتقاسمون معها أوجاع يومهم وغدهم، ويَشُبّون إلى العلى بالشكر باحتساب لذائذها أنعما من الحق تعالى. هؤلاء الذين يستلهمون من تاريخنا الحي المزدهر بالألوان، الممتد إلى مئات السنوات، ويستقوون منها، فينفخون روح صيرورة "الملّة"، "ملّة" حقيقية ومتدفقة بالحيوية، ويئزون الشباب بفكر الإيمان والأمل والحركة، ويفتحون تيارات جديدة من حوض فكرنا "الملّي" المستكين منذ زمن طويل في الشباك القاتلة للخمود الرهيب. ونحن كأمة سنهرع في هذه التيارات إلى معابدنا التي فقدناها في قلوبنا، فنجهش بدموع الوصال، ونعود إلى مآوينا ومساكننا الدافئة كزوايا الجنة، فنلتقي بانعكاسات الجنان التي ضيعناها منذ أمد بعيد، ونكتشف مجدداً مدارسنا القائمة على قواعد البحث عن الحقيقة وعشق العلم، فنتعرف على الوجود كرة أخرى من خلال منافذه المفتوحة على الكائنات... ونـــزداد حباً للجميع، ونتعلم اقتسام كل شيء، ونحتضن الجميع على السفوح الزمردية لقلوبنا بأخلاق العيش في اضطراب وقلق متزايـــد... ونطفح بمشاعر الفن والصنعة إزاء الوجود، ونفكر في المناسبات البشرية بالأنّات والخفقات والدموع الحرى، فنعبّر عن أنفسنا.

أجيال الأمل – ٢

إن إحياءنـــا "بالانبعاث بعد الموت" مرة أخرى، مرتبط ارتباطاً وثيقاً بأطقم عديدة من الأبطال، البالغين أنوار الحقيقة بعد اجتيازهم آفاق العلم، والمتحكمين في ضبط الرغبات والمتطلبات البدنية ضمن إطار الضرورات، والسامعين بوجدانهم دوماً أناشيد الماورائية تناديهم إلى الله، المعبرين عنه تعالى ببيان بلا حرف ولا لفظ ولا صوت في هيجانهم ونشيجهم، المتنفسين أنفاس أنسه شهيقاً وزفيراً.

ولأن هؤلاء الأبطال أعدوا أنفسهم منذ البداية عبيداً للحقيقة في رقّ يأبى الانعتاق، فهم لا يكونون أسارى وخدماً للمطالب المشتتة في المجتمع بتاتاً، بل يحسون دائماً بنير العبودية للحق تعالى في أعناقهم، فيقومون ويقعدون بملاحظة اللانهاية باستمرار، ويقضون أعمارهم تحت زخّات الإلهام، ويلحون في توسيع وليجة الباب مع كل إلهام جديد من أجل واردات أخرى، وفي جهد من أجل إبلاغ الآحاد إلى الآلاف بحظوة امتيازهم عن الآخرين، فيتجرعون أذواق ولذائذ وحظوظ البقاء في الفناء، في كل لحظة، وفي كل مرة.

سير حياة هؤلاء الأبطال يتجدد باستمرار في إطار الإيمان والعرفان والمحبة والعشق والذوق الروحاني، وتخفق أجنحة فكرهم الواسع كالآفاق سابحة في الرحاب المميّزة بين الفانين واللانهائي. رأس مالهم العلم والإيمان، ومنهلهم القدير المطلق، وطريقهم السبيل الأعظم الذي ســـلكه كل من جاء وراح من صلحاء عباد الحق تعالى. ماضون إلى الأبـــد، واثقين بقوة الديـــن القاهرة، وبعنايات الله تعالى المتجلية فجاءة، ومرشدهم ﷺ... وهكذا تختنق مرحلة أخرى من الإلحاد ومدة "الفَتْرة"، وتتهاوى في مهاوي مخالفتها الذاتية للطبع والفطرة.

لم يعش الإنسان على مدى التاريخ من غير علم وإيمان، ولم تقم مدنية من غير معبد ومعبود. وقـــد مرت فترات جعل الإنسان أُفْقَه ظلاماً وقتاماً بانحداره في مهاوي الحرمان من العلم والإيمان. لكن بعد كل ســـقوط، يستشعر تعلّقه بالله في وجدانه من نقطة أعمق، فيتوجه إلى حال فوق الحال السابق تماسكاً ومعنىً وسرعة وجذباً. فبقاء المدنية وعيشها في فراغ باعتبار المعبد والمعبود، أو الإنسانية في خلاء باعتبار العلم والإيمان، حال موقوت بمدة قصيرة لا محالة، في الماضي وفي المستقبل. فلن يُنتزع فكر المعبد والمعبود من قلب الإنسانية، ولن تنفصم عرى البشر من الله تعالى تماماً، إلى أن تطوى السموات كطي السجل للكتب وتدك الأرض دكاً دكاً... وتقوم القيامة. ولأن الوجدان منفتح بالأصل على الله تعالى، فإن ظلمة الآفاق وقتامها الطارئ أحيانا تمر ســـراعاً كالخسوف أو الكسوف... ويعقب الظلمات الضياء، والغروب الشروق... ويأتي يوم يقر فيه الزمان، ومن في الزمان، على الفَلَك الذي أمر بـــه الله تعالى، وبأحكام الله القاهرة بالمناهج المعينة في الأخرويات، والمقررات المبيَّنة سلفاً.

إن الأجيـــال الحاضرة تبحث في كل مكان عن ذاتها، وعالم وجدانها، والجنان التي أضاعتها. وإن توجهاً منها بهذا الاعتبار وحده، يكفيها للعثور على بطلها وبلوغها خط الحق. أوَلَسْتَ ترى الوجدان وقـــد قَرّ في فَلَك طبيعته وفطرته؟ وأن الله يُسْتَشْعَرُ به في أنفاس الوجود والصورة واللون في كل شيء يسيل إلى نفوسنا من مداخل الآذان والعيون والأحاسيس؟

وزيادة على ذلك، بدأ الإلحاد يندحر مرة بعد أخرى، بل بدأ بالانحلال والانهيار، بتهافته وخوائه الذاتي، بعدما ســـل أو انتزع من الأشياء الروح والمعنى ليستغلها في الهوى والرغبة والأحلام... وإبّان ذلك دخلت الأرواح الباحثة عن حقيقتها إلى سياق اكتشاف الذات مرة أخرى. فلا بد -في هذه الحال- أن تفتر تعلقاتنا إزاء الأشياء المعتادة رويداً، وأن تتعيّن المرجعية

بخوارق بوصلة الفطرة التي هي عنوان إحساسنا في القلوب بعجزنا وضعفنا، وبفضل استشعار "مركز الاستناد" و "مركز الاستمداد" في أعماق وجداننا... ومن ثم تنسلخ إراداتنا عما يُضيّق عليها، وتتوجه إلى متطلبات اللانهاية وأمانيها.

وفي هذا السياق أيضاً، يُكسب الإيمان والعزم -وهما أهم حركية معنوية للنجاح- كل واحد قوةَ روحه اللدنية، فتؤجج هذه القوة الروحية الآمال والإرادات، فتبدد وتبعثر شؤمهم وتهافتهم، وتعبر بهم الجسور المتصلة بالصيرورة الذاتية ليصلوا إلى الله تعالى.

فإن أسرع وأقصر وأسلم طريق يوصل الإنسان إلى الحقيقة هو طريق الإيمان المجهز بالعلم والعرفان. لقد كسب الروح دائماً أعظم النصر وأعجبه بهذا الطريق. فحيثما افتُقِد الإيمان غير المتغذي بغذاء العرفان، احتلت القوة العمياء محل الحقيقة والحقوق... ولا مفر في مثل هذه الأحوال من مواجهة عنف القوة... فيكثر اللجوء إلى السلاح، ويأمر المال فيطاع، ولا يُسمع إلا صوت المعربد، ويُرغّب إلى الرياء وتروج بضاعته. فمن المحال في هذه الأحوال الوصول إلى روح الوجود، والتطلع إلى ما وراء الوجود.

والحال أن حقيقتنا موصولة اتصالاً وثيقاً بروح اللانهاية. ولاستشعار هذا الاتصال والإحساس بما تَعِد به هذه العلائق، يجب علينا أن نبذل تضحيات كثيرة. وجلي للعيان أننا إنْ لم نتخلَّ عن السعادة الفردية والحظوظ الدنيوية والمقام والمنصب، بل حتى عن مشاعر فيوضاتنا المعنوية، فلا محل للكلام عن مثل هذه العلاقة، وهذا الاتصال. ومتى ما تحققت هذه العلاقة وهذا الاتصال، فستولد دنيا الغد التي يكون "الحق" فيها تاجاً فوق الرؤوس، وتلقى الحقيقة التوقير، ويُعدّ التفكير بالقوة وملاحقة المطامح عيباً وشيناً.

نحن نحسب أنفسنا في السبيل، قاصدي عالم مضيء كهذا، ومنذ سنوات طويلة. ومن دون تكهنات البحث عن أمارات الفجر حولنا، ومن غير

الانشغال بالأبحاث السحرية لأسرار دنيا الرياضيات، نقوم بتقييم كل شيء تشير بوصلة أرواحنا إلى صحتها وسلامتها حسب إرشاد الثوابت الإلهية، فنَجِدّ في استكشاف المشيئة الإلهية ونقاط التقائنا بما تعدنا به تلك المشيئة، وذلك بإرادتنا التي هي أعظم وسيلة تعلقٍ بمشيئة الحق، ثم نتقدم سعياً في هذا السبيل كأبطال راهنوا بحياتهم ووجودهم كله وذلك من أجل إحياء نمط حياتنا المبارك.

وينبغي على كل واحد أن يقول لنفسه بمسؤولية فردية جادة: "اليوم يوم الفعال. فإن لم أنهض للعمل، فلن ينهض غيري أيضاً" ثم يكز فرسه ليندفع إلى مقدمة الصفوف لرفع الراية... من غير أن يقع في منافسة أو غيرة، فاسحاً السبيل لمن في يمينه ويساره في الحركة والسعي أثناء تقدمه لحمل الراية. إن الكثير منا قد أطفأ قلوبنا وصب ماء النار في عيون أرواحنا بقسم من أعماله، سواء بعلم أو بغير علم. في هذه المرحلة المظلمة، لم ينتفض أكثرية شعبنا ليحفز أنوار الحقيقة في جوهره، ولم يتوصل إلى الحركيات المعنوية التي تعد من حيويات إحيائنا كالماء والهواء والخصب. وإننا نستطيع في حاضرنا أن نسير بالاتكال على الله تعالى واعتماداً على قوتنا الكامنة، وعلى روابطنا بالأخرويات كافة. وإنّ نظرَنا إلى الأشياء كلها بعين الروح، واستماعنا إليها بأذنه، وامساكنا بها بأيديه، وتقويمنا إياها بمحاكمة منفتحة على الإلهام، مرهون بإعـــادة النظر في هـــذه القوة الكامنة والروابط بالأخرويات. ونلخص الموضوع بمقترب لنيازي المصري: "لا تبحث عن الروح والمعنى اللذين ينقلانك إلى الصيرورة في خارجك. التفت بجيدك واستمع إلى وجدانك، وابدأ من نفسك في السياحة نحو الصيرورة باستعمال عدسة ماهيتك".

ونحن نولي وجوهنا شطر أنفسنا

صار هذا العصر عصر معضلات تواجهنا ونعيشها، ولا زال. وهنالك معضلة منها تلهي عن بقية المعضلات لعمقها ومقاومتها للدواء والمعالجة واستعصائها وعاجليتها إلى درجة لا يمكن إهمالها. هذه المعضلة العملاقة هي إهمال شعبنا، وشبابنا خاصة، لقيَمنا الذاتية. فإنها إن لم تعالج قبل فوات الأوان وبما يكفي عمقها وبأيدٍ ماهرة كفوءة، فستواجهنا معوقات غير متوقعة، وقد تقع هزائم في مضمار النجاح، ويسَودّ مصيرنا بحوادث مستجدة نصاب بها في مفاجآت غير منتظرة.

إن الدمامل التي ظهرت أمس في صور الإهمال والغفلة واللامبالاة وضعف الكفاءة وأحلام التغير، صارت أوراماً، ثم انتشرت في جوانبنا وأخضعتنا لنفسها، بمضاعفاتها السريعة والمتلاحقة... حتى استناخت خريفاً على كل شريحة من شرائح المجتمع، وسلبت منها ألوانها الأصيلة. فكم مرة تزعزعنا بهذه الأمراض وعشنا سوء الطالع بتغلبها علينا؟ وكم مرة حسبناها حظنا الأسود المحتوم وضوينا وضنينا؟ وكم مرة صرفنا كلمات غير مناسبة ضدها تنفيساً لغضبنا -مع مناقضتها لأسلوبنا-، أو قمنا وقعدنا غضباً إذ لم نجد قولاً مناسباً عنها، فلم نزد على "لا حول ولا قوة إلا بالله"؟ وفي خضم هذا التلاطم، اكتوى بعضنا في دوامة الأحاسيس القاتلة هذه، واكتفى بعضنا بفضح أخطاء الخائضين في "اللوثيات".

وكان ينبغي أن نحتضن أولئك بعرض حياة جديدة وندية في الأفق، واحترام حماسهم والتساهل مع هذيانهم ببعض المعاذير، من أجل امتصاص حرارة الشدة والغضب فينا، بل ومجاملتهم بالمداراة في بعض الأمور لإيجاد مناخ للتفاهم في الأمور المشتركة أصلاً... بدلاً عن اتهام خط سيرهم

وتخطئتهم. والواقع أن مجتمعنا يتحمل في مبناه أكثر من فكر وفهم وفلسفة معاً. لذلك، نرى في طريق مغامرتنا "الملّيّة" الخاصة، آثاراً موضعية لفرنسا، وتوقفاً عند المتلَقّيات الألمانية، ومجاراة لنمط الفكر الإنكليزي أحياناً، واليوم نجد نشوة مع الحرية الأمريكية، وفي كل الأحوال نضغط على السواتر الجانبية لطريقنا الرئيسي.

هذه المفاهيم والتلَقّيات والفلسفات تؤثر تأثيراً سلبيا في ثقافتنا "الملّيّة". لكن يمكن تقييم مثل هذا التنوع في كل الأحوال بالغنى والثراء. المهم عندي هو أن يحافظ الشعب على قيَمه الذاتية ودورانه في الفَلَك الذاتي. لكن الباعث للأسى أن المقتدرين على التقويم المفيد لهذا التنوع الثقافي، قد عجزوا عن التقويم والاستفادة، في الوقت الذي يُعّد كل منها عنصراً لطرح بديل مستخلص من تضاد الطرحين الآخرين. فصرنا نشبه أصحاب منجم أغرار يرون الطريق إلى منجم الذهب عبر الحجر والتراب فيحارون في مسيرهم إما بالالتهاء والتعلق بالحجر والتراب أو الوقوع في حرمان الذهول عن الأصل بظن ساحة المنجم التي يجولون فيها منجم الذهب بنفسه. وكم مرة حصلنا على مصادر للنور لم نستفد منها للتنوير، بل استحوذنا على النار واللهب منها وسببنا حرائق حيث نريد التنوير.

ومن العجائب أن فينا من إذا علم مقدار قطرتين استخف بالآخرين، أو استطاع أن يفكر مقدار قطرة ظن نفسه فيلسوفا! وإن من مثّلَ القوةَ وضع العقل والمنطق في الحرز والاحتياط وانطلق في طريقه تحت وصاية القوة العمياء، وإن السياسيين جعلوا غايتهم التحزب ورهنوا كل شيء بالأحزاب، فافتدوا كل شيء للتحزب، وعجزت فعالياتنا الاقتصادية والسياسية والثقافية عن الانفلات من شباك الدائرة الفاسدة لدور "التعارض والتساقط" بسبب الحسد والتنافس والبَرَم بالآخرين، وحتى الفتيان تضاربوا منذ نعومة أظفارهم بأغصان الزيتون التي يحملونها أو بالدمى الناعمة المصنوعة من الريش، وكأنها

عصي، وصرف الشـــباب اندفاع الحركية في أرواحهم إلى مجريات ضد "ملّتهم"، فهدموا وخربوا روح "الملّة" بدلاً عن تعمير اعتبارنـــا المهزوز وكرامتنا المنكسرة.

فلماذا كل هذا؟ لماذا لا نتحابّ وفي إمكاننا أن نتحابّ؟ لماذا لا نقيم خلّة وصداقة دائمة؟ لماذا لا نتقاسم الفرح والترح، والسرور والحزن؟ هل المجاهدة والغيرة على فتح القلوب أشد علينا من الكفاح في ميادين الحرب؟ أم أن أثمن مضغة في الإنسان، وهو القلب، موصد الأبـــواب بوجه الحب والتسامح والاحتضان والتقبل والتقاسم، ومفتوحة للبغض والحقد والغلظة والبرم وانحصار الفكر؟ كلا...كلا! قسماً بالله خالق القلب إن أثمن عمق وأغنى جانب في الإنسان، لا يمكن أن يبقى مغلقاً بوجه الفضيلة بهذا القدر، ولا مفتوحاً على اللوثيات بهذه الدرجة!

إن أعظم الفاتحين في الدنيا، بدأوا كل عمل، من أول وقفة للفتح، وأعني القلب. ثم انتشروا من هذا الميناء إلى أصقاع الأرض في أربع جهات. فلولا أن دخلوا قلب الإنسان في الأناضول، لما تحقق الظفر في "ملازكرت"... ولولا الإحساس بالأمل في خفقان صـــدور الفتيان الشجعان المحاصرين لاستانبول، لما أخمدت المدافع المدوّية من خلف السور نار بيزنطة. نعم، إنها شبكة الشفقة والمحبة التي تظهر في قلوب المؤمنين كحسٍّ أو تعلّق، ثم تسري في الصدور كلها وتملؤها، حتى إذا بلغت خيوطها أرضاً، هرع الناس إليها بقلوبهم، فتتقدم إليهم بدلال، وتستجمع نفسها بدلال، تروي لمن تضمهم إلى صدرها أساطير المحبة.

فمن أين نفذ فينا الحقد والبغض والعداء والبرم، ما دام تاريخنا بريئا من هذه الأمراض؟ لماذا يبغض بعضنا بعضاً، وننصب الفخاخ لبعضنا، ونفترس بعضنا افتراس الذئب؟ بـــل لماذا نحرم الحياة بعضنا على بعض؟ مع أننا منذ قرنين نكنّ إعجابا وحباً عميقاً لفرنسا وألمانيا وإنكلترة وأمريكا، وأخيراً

لليابان؟! أم أننا مصابون بمرض في "الشخصية"؟ وإلاّ، لماذا نقول بلسان الحال "لا خير فينا! فلنلجأ إلى الأرواح الأجنبية!" فنطرح القيم التاريخية لألف سنة في القِمة كطرح القُمامة، ضحية للأحلام والتخيلات؟

فلنستمر نحن في ابتكار معضلات عبثية من العدم والفراغ... ولكن إبان ذلك، نشأت أجيال عديدة بلا مستند وفَلَك وعرفان وفكر، وبدهي بلا مِقْود ولا رُبّان، في ظل الأهواء والرغبـــات وخيالات الأحلام! فاقدةً ملاحظاتها الميتافيزيقية، غائبةً عن صورتها وشخصيتها "الملّيّة"، هائمةً عُمراً في وهم أن تجد جواباً عن سؤال: "من أنا" في الاسمال التي استَجْدتها من سبع عوالم! فبقيت مضطربة في أسْر مَدِّ المادة وجَزْرِها، وعاشت بلا لسان ولا قلب، وخلطت أحيانا الديـــن بالأساطير، وفدت الأخلاقية في مراســـيم الترحيب بالإباحية، وصبغت تَلَقِّيات الفن بلون الشهوة، وحولت الشعر والموسيقى إلى رضاب يسيل من فم البذاءة... ثم وجدت نفسها في وسط الساحة القاتلة التي يتصارع فيها خمسون نوعاً من هذه الأغلاط! وبدهي ألا تكون النتيجة إلا كهذه!

فلا غرو بعد ذلك أن يعتدي هذا الجيل على اليمين والشمال، ويستخف بماضيه، ويضيع ثقته بنفسه وثقة الآخرين بـــه زيادة على تضييع إيمانه، ويتجرع آلام الحسرة على الحب زيادة على مشاعره الإنسانية. بل ويعهد بتربية الأبناء إلى الأيدي الأجنبية في هذه المرحلة، ويَشُبّ فكره كأطفال في المدارس الأجنبية... هم منكوبو البعد والقرب، القريبون من الأغيار، فهم أدنى إليهم من أنفسهم، وهم الذين يحسون بحرارة بعضهم لتداخلهم، لكنهم تقشعّر جلودهم في برد التواصل بينهم. هؤلاء هم الذين انخرق إيمانُهم بألف شبهة وتذبذب، ثقتهم مهزوزة الأساس، آمالهم شذر ومذر، قلوبهم كوادٍ نضب ماء مجاريها... مشاعرهم الإنسانية في عهدة الحقد والبغض والعداوة، وقلوبهم الخاوية ساحة جولان المخاوف... مستسلمون لغياب الأهداف

والغايات مَدّاً وجَزْراً، ومدحورون لمسافات غيابها قصراً وطولاً، آفاقهم مدلهمة السـواد، يعانون صعود الصعاب حتى في الهبوط! مسلوبو اللب والعصارة كأنهم قائمون بقشورهم وحدها... صاروا في حال مقزِّزٍ في كل شيء!

والواقع أن نفخ الحياة في هذه الجنازة الحية عسير. لأن مثل هذا الجيل قد صار غريباً عن حياة من نوع حياتنا، ومخالفاً لقيمه الذاتية. ومع كل ما فيه، فإن واجب النهوض به ملقىً على عواتقنا. ونحن نؤمن بأنه سينتفض على قدميه كسامع نفخة الصور، ويهتف بجدّ إقبال وجوده كرّة أخرى، عندما تحيي المشيئة الإلهية إرادتنا. نعم، لـن يكون عملاً يسيراً ملء الفجوات والخلال المنفرجة في بناء المجتمع وإصلاح ما فسد وعطب بعد قرون من الإهمال الوبيل. لكن ورثة الأرض لفكرٍ غيّر إدبـاره وإدبار المظلومين والمغبونين الذين في وصايته إلى الإقبال مرات عديدة، سـيجتازون محنة هذه العوارض المهولة... فيقيمون جنات عامرة لغيرهم في جدب دنياهم. وسيملأون الفجوات والخلال في المجتمع الذي أُمِروا بنفخ الحياة فيه برحاب التسامح، وسينظرون إلى قصور الآخرين بالعدسة المصغِّرة التي تصغّر خطاياهم أنفسهم، وإلى أخطاء الآخرين بتحكيم وجدانهم الذي يعترف بأخطائه، وسيرشِدون إلى بدائل كثيرة لتخليص غيرهم من الأخطاء بمهارة حكيم ماهر لا يُشعر مرضاه بمرضهم، ومن غير تأنيب لأرواحهم أو إيقاعهم تحت ظلم الإشعار بأخطائهم.

ومن غير المتصور بداهة أن يتغير كل شيء في مجتمع يتعرض منذ قرنين إلى الانقلاب في القيم والتعويد على العوائق والمثبطات بحملة واحدة من خوارق الكرامات! فليس يسيراً أن يحل الإيمان محل الإلحاد، والانضباط محل الانفلات، والنظام محل الفوضى، والأخلاق محل اللااخلاقية والعشق الإلهي وحب "الملّة" محل الشهوة. نعم، ليس يسيراً إزالة آثار السنين وانتزاع الإلحاد

الذي نصب عرشاً وسط سرادق الإيمان، واللامبالاة التي قلبت القيم الأخلاقية رأساً على عقب، واللامفيد الذي أثيرت وحشية شهيته بمنحه مكاسب على حساب الحياة المنضبطة، ثم إحلال القيم التي يريدها الله تعالى ويوصي بها رسوله ﷺ محلها. فمنذ سنين تهشمت المعايير التي تجعل من المجتمع مجتمعاً بحق، بل تحول المجتمع إلى ركام بشر، في العالم كله ونحن معه، بالأيديولوجيات المنحرفة، والتَلَقِّيات العبثية، وهذيان التمرد والعصيان... فانتُزِع حس المسؤولية من القلوب وسُقيت القوى الحيوية بأحاسيس البوهيمية. في هذه المرحلة المشؤومة التي جرجرت فيها خيالاتٌ وأحلامٌ تتبدل كل يوم الكتلَ البشرية خلفها، ألقى من ألقى نفسه في تيارات مجهولة العواقب، فقالت أرواح منفلتة: "كم سنة وأنا مكتوف اليدين!" وقالت جِبلاّت هوائية: "كم استحييتُ من أمور غير جديرة بالحياء! ليتني ما وقفت في حدود لا معنى لها!" وقال نفر عديمو المحاكمة: "تمردتُ وعصيتُ فنجوت وتخلصت" أو "اجتزتُ حدود الحرام والحلال فوجدتُ الحرية!"

والآن.. كرة أخرى يقع على كاهلنا، وعلى كواهل كل محب للوطن، حِملُ إزالة هذا التبعثر وتحريك قدرة النشاط الهامد فينا حسب آفاق فكرنا. نعم، ينبغي أن ننسحب مرة أخرى إلى حرم الروح "الملّيّة" ونستعمل حق إرادتنا إلى آخر نقطة، وننطلق في المسير مرة أخرى كالحواريين والمسلمين الأوائل، بعزم سَنَّتْه سنين الظلم والغبن الطويلة، سائحين عمراً من هجرة إلى هجرة، يدفعنا عمق الشعور بضرورة وجود الإيمان والإذعان والعرفان حيثما وجد إنسان، فنعمل على حياكة ما بقي من حياتنا نقوشاً على نسيج الفكر والحركية لأهل الحقيقة الذين كسبوا رضا الله تعالى.

نحن نؤمن بأن الجميع على سطح الأرض سَيُقَبّلون بامتنان أيادي قلوب بهذا القوام والاعتدال إذا امتدت إليهم. فإن استطاعت الإرادات الناضجة والمستقرة، القادرة على حمل رايات ديننا ولساننا ووطننا ورسالتنا، أن تسيح

في الأرض بلدا بعد بلد، فسيُستقْبَلون في الأبواب التي يطرقونها باباً فباباً، كاستقبال "الخِضْر"، فتُرتَشَفُ الأفكار التي يقدمونها كإكسير الحياة. نعم، سينطلق هؤلاء إلى اللانهاية في صداقة موسى والخضر أينما حلوا، ويبنون سداً لحماية الذين يترقبون ذا القرنين، ويرشدون المنـــزوين في المغارات أعماراً منذ قرون إلى المعابر الموفية "للانبعاث بعد الموت". ولعلهم يقدحون -أينما خطروا- الشرارات الأولى لفكر نهضة كبرى هي أشمل وأوسع نهضة تهفو إليها الأعناق منذ قرون...

obeikandl.com